﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جزاءُ اللهِ تعالى قائمٌ على عدْلِه ورحْمتِه بذكْرِ الأدلّةِ وتوضيحِ البيِّناتِ

لَمَّا ذَكَر اللّهُ تعالى في الآيتين السَّابقتين كُلًّا مِنَ الّذين اتّبعوا هُداه، وما منحَهُم مِن فَضلِه، وكريمِ عطاياه مِن اطمئنانٍ وأَمنٍ ورحمةٍ، والّذين شقُوا، فكذّبوا بآياتِه تعالى، واستكبروا، حسُنَ أن يذكرَ وَصَفَ بعضِ أفعالِ المُكذِّبين الكافرين ومآلِهم، فذكرَ افتراءَهم على اللّه الكذبَ، وهم بذلك ظالمون، وكَذَّبوا بآياتِه، وذلك ظلمٌ ثانٍ عظيمٌ، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ﴾[1]، ثمَّ ذكرَ نهايةَ أمرِهم في الدُّنيا عندَ الموتِ، وأنَّ اللّه لا يُعاقبُهم إلّا بأقوالِهم وشهادتِهم على أنفسِهم بالكفرِ، وهذا تذكيرٌ دائمٌ بعدلِ اللّهِ تعالى، وأنَّه لا يظلمُ النَّاسَ شيئًا، وفيه عظيمُ رحمةِ اللّه بعبادِه المؤمنينَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنَالُهُمْ﴾: منَ الجذر (نَيَلَ)، ويدلُّ أَصلُ المادَّةِ على العطاء[2]. والنَّيلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيده، يُقال: نِلتُهُ أَنَالُه نَيلًا. والنَّولُ: التّناول[3]. والنَّوالُ والنَّالُ والنَّائلُ: العَطاءِ[4]. والمعنى هنا: يَصِلُ إليهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2829.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نيل).
(3) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(4) الفيروزابادي، بَصائر ذوي التَّمييز: (نيل).

2) ﴿نَصِيبُهُم﴾: أَصل (نَصبَ): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواءٍ، والنّصيبُ: الحظُّ من كلِّ شيءٍ؛ إذ يُعزَلُ ويُقامُ لصاحبِهِ. وكلُّ لفظ (نصيبٍ) في القرآنِ معناه الحظُّ منَ الشّيءِ. والمقصودُ في الآيةِ حظُّهم المُعَيَّن؛ أي: ما أخبرَ اللّهُ ﷻ من جزائِهم[1].

3) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: جَمعُ كُتُبٍ وكُتْبٍ. وكَتَبَ الشّيءَ: خَطَّه. وسُمِّيَ القرآنُ الكريمُ كتابًا؛ لِمَا جُمِعَ فيه منَ القصصِ والأَمرِ والنَّهي والأمثالِ والشّرائعِ والمواعظِ، أو لأَنَّه جُمِعَ فيه مقاصدُ الكتبِ المنزلةِ على سائرِ الأنبياءِ، وكلُّ شيءٍ جمعتَ بعضَه إلى بعضٍ فقد كتبتَه[2]. والمرادُ به هنا اللَّوحُ المحفوظُ؛ أي: ممَّا كُتِبَ لهم فيه.

4) ﴿رُسُلُنَا﴾: من (رسل)، والرَّسلُ: الانبعاثُ على تؤدةٍ. ومنه: ناقة رَسْلَة؛ أي: سهلةُ الانقياد، وإبلٌ مَراسيلُ، والرّسولُ: المنبعثُ، وأُخِذَ منه تارةً الرِّفقُ والمَهَلُ، فقيل: على رِسلِك، وتارةً الانبعاث، فاشتُقَّ منه الرّسول[3]. ورُسُلُ اللّهِ تارةً يُرادُ بها الملائكةُ، وتارةً يُرادُ بها الأنبياءُ[4]. والمقصودُ بالرُّسلِ هنا: مَلَكُ الموتِ وأعوانُه.

5) ﴿تَدْعُونَ﴾: من (دعو)، والدُّعاء: النِّداء، والمعنى المحوريُّ للكلمةِ: جَذبُ الشّيءِ أو محاولةُ ضمِّهِ إلى حيِّزٍ أو أمرٍ: كجَذب اللّبَنِ إلى حَيِّزِهِ أو حيِّزِ الحالبِ، وجَذبِ النَّاسِ إلى الوليمةِ والاجتماعِ، والسَّوقِ إلى الأمير. والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأَنَّ العبادةَ تَقَرُّبٌ إلى المعبودِ، واعتزاءٌ إليه، واستكفاءٌ به، فهي منَ الجذبِ والانجذابِ، وسياقاتُ هذا المعنى واضحةٌ في القرآن الكريم، وكثيرٌ منها تصحبه عبارةُ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أو نحوها[5]. والمعنى في الآية: تعبدون.

6) ﴿ضَلُّواْ﴾: ضَلَّ يَضِلُّ ضلالًا وضلالةً: حادَ عن جادَّةِ الصَّوابِ، فهو ضالٌّ. وضَلَّ عنِ الطَّريق، وضَلَّ الطّريقَ لم يهتَدِ إليه. وضَلَّ البعيرُ: ضاع. الضَّلال: مضادُّ الهدايةِ والرَّشادِ، وهو العدولُ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ومنَ الضَّلالِ: غيابُ الفقدِ، وضابطُه كلُّ ما جاءَ بعدَه في القرآنِ (ضلّ عن)، ونحوها[6]. والمعنى هنا: ذهبوا عنا.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 128، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصب).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (كتب).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (رسل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أظلمُ النّاسِ مَن بـدَّلَ مـرادَ اللهِ تـعـالى وكـذَّبَ بشرائعِه

أخبَرَ الحَقُّ ﷻ أنَّه لا أحَدَ أشنَعُ ظُلمًا، ولا أبشعُ جُرمًا، ولا أقبحُ ذَنبًا مِمَّنِ اختَلَقَ على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه الّتي أنزَلَها على رُسلِهِ الكِرام ﷺ، أولئك الموصوفون يَصِلُهُم نصيبُهُمُ المكتوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخيرِ والشَّرِّ عَدلًا منه سبحانَه إلى أن تحضرَهم الملائكةُ؛ لتقبِضَ أرواحَهم، فتسألهم مُوَبِّخين مُستنكرين: أين ما كنتم تَعبدونَ مِن دونِ اللهِ؟ فيجيبون: غابُوا عَنَّا فلم نَرَهم، ويُقِرُّون على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ، وإقرارُهم في ذلك الوقتِ حجَّةٌ عليهم، ولن ينفعَهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ وأثرُها في الرَّبْطِ:

الفاءُ لِـربْـطِ أو ترتيبِ ما بَعدها عَلى ما سَبَقَها

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ رابطةٌ معنويَّةٌ، فهي إمَّا أن تكونَ تفريعيَّةً على ما سَبَقها، "وهذه كالفَذلَكَةِ لِما تَقَدَّمَ لِتُبَيِّنَ أنَّ صِفاتِ الضَّلالِ، الَّتي أُبهِمَ أصحابُها، هي حافَّةٌ بالمُشرِكينَ المُكَذِّبينَ برسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فإنَّ اللهَ ذَكَرَ أولياءَ الشَّياطينِ وبَعضَ صِفاتِهم"[1]، وإمَّا أن تكونَ لِتَرتيبِ ما بَعدها على ما سَبَقَ مِن تَبكيتِهم وإظهارِ كَذِبِهم وافترائِهم[2].

غَرَضُ الاسْتفهامِ وفائِدتُه:

الإنكارُ والتَّعجُّبُ والتّوبيخُ ممَّا وقعَ منَ الكفّارِ، ونفيُه نفيًا قاطعًا لشَناعةِ ما فيه

غرضُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الإنكارُ؛ أي: إنكارُ الواقعِ، ويتولَّدُ منه معاني التَّعجّبِ والتّوبيخِ على ما وقعَ مِن هؤلاءِ الكفّارِ. وفائدتُه: النَّفي؛ أي: لا أَحَدَ أبشَعُ ظُلمًا، وأخطأُ فِعلًا، وأجهلُ قولًا، وأبعدُ ذَهابًا عنِ الحَقِّ والصَّوابِ مِمَّنِ اختلقَ على اللهِ زُورًا مِنَ القولِ، فَنَسَبَ إليه الوَلَدَ والصّاحبةَ، وحرَّمَ ما لَم يُحَرِّمْه اللهُ تعالى،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/111.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/63.

فلم يَقتَصِرْ على افتراءِ الكَذِبِ في حَقِّ نَفسِهِ وضَلالِها، حتّى قَصَدَ بذلِكَ ضَلالَ غَيرِهِ؟! أو كَذَّبَ بأدِلَّةِ اللّهِ وآياتِه الدّالّةِ على وحدانيّتِه سبحانَه، ونبوّةِ أنبيائِه، فجحدَ حقيقتَها ودافع صحَّتَها؟![1].

وَجْهُ التَّعْبيرِ بصِيغةِ (أفعل):

الاعتداءُ على حقِّ اللهِ هو أظلمُ اعتداءٍ مارسَتْه البشريَّةُ في تاريخِها

جاء التَّعْبيرُ بصِيغةِ المفاضَلةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾؛ لأنَّهم "كانُوا أظلَمَ النّاسِ ولَم يَكُن أظلَم منهم؛ لأنَّ الظُّلمَ اعتداءٌ على حَقٍّ، وأعظَمُ الحُقُوقِ هي حُقُوقُ اللّهِ تعالى، وأعظَمُ الاعتداءِ على حقِّ اللّهِ الاعتداءُ عليه بالاستِخفافِ بِصاحِبِه العَظيم، وذَلِكَ بأن يُكَذِّبَ بما جاءَهُ مِن قِبَلِه، أو بأن يَكذِبَ عليه فَيُبَلِّغَ عنه ما لَم يَأمُرْ بِه، فَإنْ جَمَعَ بَينَ الأمرَينِ فَقَد عَطَّلَ مُرادَ اللّهِ تعالى مِن جِهَتَينِ: جِهَةِ إبطالِ ما يَدُلُّ على مُرادِهِ، وجِهَةِ إيهامِ النّاسِ بأنَّ اللّه أرادَ منهم ما لا يُرِيدُهُ اللّه"[2].

بَلاغةُ الاحْتِراسِ:

إرادةُ عُمومِ الحُكْمِ لا شَخْصٍ مَخصوصٍ

في العدولِ عنِ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ إلى (مَن) احتراسٌ دقيقٌ؛ لأنَّه لو قالَ: (مِنَ الّذي افترى)؛ لفُهِم أنَّ المرادَ به معيَّنٌ مخصوصٌ، وهذا غيرُ مرادٍ؛ لأنَّ المقصودَ التّعميمُ؛ ليشملَ كُلَّ مَن صَدَرَ عنه هذا الفعلُ الشّنيعُ، أو اتَّصفَ بهذا الوصفِ الوضيعِ، أو قالَ هذا القولَ البغيضَ، وليس المقصودُ التّخصيصَ بمُعَيَّنٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِمُفردةِ الافْتراءِ دونَ الكَذِبِ:

الافتراءُ أَخَصُّ مِنَ الكَذِبِ

عُبِّرَ بالافتراءِ مع الكَذِبِ في قولِه: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾؛ حيث لم يقُل: "مِمَّن كَذَبَ على اللّه أو كذَّب" فحسب؛ تَجَنُّبًا لتكرارِ الكلمةِ؛ وللجمعِ بين وصفين شنيعين لهؤلاء الكفرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/408.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/111.

هُما: الافتراء والكَذِب، فإنَّ افتراءَ الكذبِ لعنةٌ قائمةٌ بذاتِها، فكيف إذا اجتمعَت معها لعنةٌ أخرى، والافتراءُ: هو القولُ المُختَرَعُ الّذي لا أَصلَ له[1]، وهو كَذِبٌ في ذاتِه، فهؤلاء جمعوا بين الكذبِ على اللّه بما لا يرتضيه، والكذبِ على النَّاس، والكذبِ على أنفسِهم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

تهويلُ جُرمِهم وعظيمُ شأنِ الافتراءِ على اللهِ تعالى فهو لا يُوازيه افتراءٌ آخرُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فلم يقُل: (ممن افترى كذبًا على اللّه)؛ لتهويلِ جُرمِهم بافترائِهم على مَلِك الملوكِ؛ لذا أُوثِرَ التَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ؛ لزيادةِ تقبيحِ أفعالِهم وأقوالِهم، فتقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للاهتمام بالمُقَدَّم، فهو ليس افتراءً معهودًا، بل هو افتراءٌ عظيمٌ في ذاتِه ومآلِه وآثارِه.

بَراعةُ التَّعْبيرِ في الجمْعِ بين لفْظِ الافْتراءِ والتّكذيبِ:

كُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَينِ لا أظلَمَ مِنهُ؛ لأنَّ الفَرِيقَ الآخَرَ مُساوٍ لَهُ في الظُّلمِ، ولَيسَ أظلَمَ مِنه

في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: نُظِمَ الافتراءُ على اللّه تعالى، والتّكذيبُ بآياتِه في سِلكٍ واحدٍ؛ للإشارة إلى المساواةِ بالأظلميَّةِ بينهما، وفائدةُ ذلك: التَّحذيرُ الشَّديدُ، والوعيدُ المزلزلُ لِكُلِّ مَن تُوسوسُ له نَفسُه التَّقَوُّلَ على اللّه تعالى، والتّشريعَ للنَّاسِ في الدِّين ما لَم يَأذَنْ بِهِ اللّهُ، ونسبتَهُ إلى اللّهِ، أو التّكذيبَ بآياته، وفائدته أيضًا عَدَمُ التَّهاون في أحدهما، فالاتّصافُ بأحدهما كفيلٌ بالهلاكِ والعقابِ، فمَن تقَوَّلَ على اللّه تعالى ما لم يَقُلْه، أو جَحَدَ ما قالَه وكَذَّبَه، فكِلا الأمرين مُساوٍ للآخر في الجُرم والظُّلم، "وعلى هذا فكُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَينِ لا أظلَمَ مِنهُ، لأنَّ الفَرِيقَ الآخَرَ مُساوٍ لَه في الظُّلمِ ولَيسَ أظلَمَ مِنهُ، فأمّا مَن جَمَعَ بَينَ الأمرَينِ مِمَّن لَعَلَّهم أن يَكُونُوا قَد شَرَعُوا لِلمُشرِكِينَ أُمُورًا مِنَ الضَّلالاتِ، وكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَهم أشَدُّ ظُلمًا، ولكِنَّهم لمّا كانُوا لا يَخلُونَ عَنِ الانتِسابِ إلى كلا الفَرِيقَينِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فري).

وجامِعِينَ لِلخَصلَتَينِ لَم يَخرُجُوا مِن كَونِهِم مِنَ الفَرِيقِ الَّذِينَ هم أظلَمُ النّاسِ"[1].

معنَى حرفِ ﴿أَوْ﴾:

نتيجةُ اجتماعِ الافْـــــتراءِ والتَّـكـذيـبِ أوِ افتراقِهما واحدةٌ

أفادَ التَّعبيرُ بحرف ﴿أَوْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ بدلَ الواو التّرديدَ، وهي تشيرُ إلى أنَّ الافتراءَ على اللّه بمثل تحليلِ ما حَرَّمَ، وتحريم ما حَلَّلَ، ونسبةِ ذلك إليه سبحانَه، واتّخاذِ الولد، وغيرِ ذلك منَ المفتريات ظُلمٌ فاحشٌ يُستَنكَرُ ويُتَعَجَّبُ منه، فليس الاستنكارُ منهما مجتمعَين، بل من كلٍّ واحدٍ منهما مُنفرِدًا، ومُجتمِعًا[2].

فالمُفتري وهو الّذي أنشأَ الباطِلَ والفريَةَ، ووضعَها، ودعا النَّاسَ إليها، كُفرُه بالافتراءِ، وإنشاءِ الباطِلِ، والمُكَذِّبُ بالحَقِّ، كُفرُه بجُحودِ الحَقِّ، وهذان النَّوعانِ يَعرِضانِ لكُلِّ مَن يأتي بالباطل[3].

بَلاغةُ فصْلِ الجُمَلِ:

تحفيزُ السَّؤالِ عـــن مـصـيرِ المُفتَرين لاجْتِنابِ خَطواتِهم

فُصِلَت جملةُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ عَمَّا قَبلها لِشِبهِ كمالِ الاتِّصالِ (الاستئناف البيانيّ)، حيث وقعَت جوابًا عن سؤالٍ أثارَهُ الاستفهامُ بما فيه من إنكارٍ مفاده: ما جزاءُ أولئك الّذين افتروا على اللّه، وكَذَّبُوا بآياتِهِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ (أولئك):

الإشـــارةُ إلى تمادِي المُفتَرِينَ في الـــغَـــيِّ والضَّلالِ

جيءَ باسمِ الإشارَةِ في قَولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ دون (هؤلاء)؛ لتمييزِ المشارِ إليهم، وللإشارة إلى بُعدِهِم في الضَّلال، وبُعدِهِم عن رحمةِ اللّهِ ورضوانِهِ، وللدّلالةِ إلى أنَّ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/113.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2830.
(3) ابن القَيِّم، الرِّسالة التبوكيّة، ص: 47.

اتَّصفوا به مِنَ الافتراءِ والكذبِ هو سببُ ذلك الحُكمِ عليهم، وإلى استحقاقِهم العذابَ الشّديدَ المُعَدَّ لَهم.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ المَكْنيَّةِ:

النَّيلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيدِه، ويدلُّ أَصلُ المادَّةِ على الإعطَاء[1]، وأضفى الاستعمالُ القرآنيُّ للكلمةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ظِلالًا تُناسبُ المقامَ مِن معنى الإصابةِ والإساءةِ والضَّررِ، وأَكَّد هذا إسْنادُ فِعْل ﴿يَنَالُهُمْ﴾ إلى ﴿نَصِيبُهُم﴾؛ للدّلالة على مُطلَقِ الإصابَةِ. وقد صُوِّر المعنويُّ وهو النَّصيبُ مِنَ الكِتابِ في صورةٍ محسوسةٍ مُشاهَدةٍ على طريق الاستعارةِ المكنيّةِ، حيث شُبِّهَ النَّصيبُ بِشَخصٍ طالبٍ ثأرًا فَنالَه. "وإنَّما يُصارُ إلى هذا لِلتَّنبيهِ على أنَّ الَّذي يَنالُهم شَيءٌ يَكرَهُونَهُ، وهو يَطلُبُهم، وهم يَفِرُّونَ مِنهُ، كما يَطلُبُ العَدُوُّ عَدُوَّهُ، فَقَد صارَ النَّصيبُ مِنَ الكِتابِ كأنَّهُ يَطلُبُ أن يُحَصِّلَ الفَريقَ الَّذينَ حَقَّ عليهم ويُصادِفَهم"[2].

تصويرُ المَعنويِّ في صُورةٍ محسوسةٍ تَتراءَى أمامَ الأعيُن

نُكتةُ خُلوِّ الفعْلِ من حرفِ التَّنْفيس:

جاءَ الفعلُ ﴿يَنَالُهُمْ﴾ مُجَرَّدًا من حرف التّنفيس (السّين، سوف)؛ "للإيذان بأنَّ نصيبَهم الّذي ينالُهم هو جريانُ أحكامِ اللهِ تعالى عليهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، وخضوعُهم لإرادتِهِ وقُدرتِهِ مِن غنًى وفقرٍ، وصحّةٍ ومرضٍ، وحياةٍ وموتٍ، وأنَّ معنى الكِتابِ على هذا هو كتابُ القضاءِ والقَدَرِ النَّافذِ في جميع المخلوقاتِ"[3].

أحكامُ اللهِ تَجري على الجميعِ دونَ تأخيرٍ أو تأجيلٍ

سِرُّ اسْتِعمالِ مُفردةِ (النَّصيب):

المراد بـ ﴿نَصِيبُهُم﴾؛ أَي: ما كُتِبَ لَهُم مِن رِزقٍ وعُمُرٍ وعَمَلٍ، أو ما كُتِبَ لَهُم مِن شَقاءٍ وسَعادةٍ[4]. وكلُّ لفظ (نصيب) في القرآنِ معناه

لَفظُ (النَّصيبِ) مُجمَلٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ لِكُلِّ الوُجُوهِ المَذكُورةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نيل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114.
(3) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/214.

الحظُّ منَ الشّيءِ، وأُوثِرَ استعمالُ مفردةِ ﴿نَصِيبُهُم﴾ دونَ مرادفاتِها؛ لأنَّ لَفظَ (النَّصيبِ) مُجمَلٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ لِكُلِّ الوُجُوهِ المَذكُورةِ، وأيضًا لبيان أنّ الأمرَ قِسمةٌ، فَلَهُم قِسمةٌ ولغيرهم قِسمةٌ، ففيه إشارةٌ إلى غيرِهِم، كما أنَّ التَّعبيرَ بـ﴿نَصِيبُهُم﴾ يُصوِّرُ عدلَ اللّهِ تعالى؛ فنصيبُ هؤلاء منَ العذابِ هو نصيبُهم في أعمالِهِم، فجزاؤُهم مُشتقٌّ من أعمالِهِم، فَكُلُّ نَفسٍ تُجزَى ما كسبَت؛ أي: جزاؤها مِن كسبِها، فلولا ما كسبَت ما عُذِّبَت، فعقابُهم جزاءً وفاقًا لِعَمَلهم[1].

دَلالةُ اسْتِعمالِ مُفرَدةِ الكِتَابِ ومعنَى التَّعريفِ:

عَدْلُ اللهِ تعالى يُصيبُ أعتَى عِباده كُفْرًا

الكِتابُ هنا بِمَعنى المَكتُوبِ، ويدُلُّ استعمالُ مفردةِ الكِتَاب في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على أنَّ المرادَ به اللَّوحُ المحفوظُ، و(أل) للعهد، والمرادُ: ما كَتَبَ اللّهُ لهم من خيرٍ وشرٍّ، ورزقٍ وَعُمُرٍ، وَعَمَلٍ، فَهُم مَعَ ظُلمِهِم وافترائِهِم لا يُحرَمُونَ ما قُدِّرَ لَهم مِن ذَلِكَ إلى انقِضاءِ أجَلِهِم[2].

والكتابُ الإلهيُّ "هو الّذي يتضمَّنُ الوعدَ على الأعمالِ؛ أي: والوعيد بدليل بيانِه بالخيرِ والشّرِّ. وهو عامٌّ يشملُ جزاءَ الدّنيا والآخرة"[3]، كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]، فكلُّ ذلك مُثبَتٌ في كتابٍ واضحٍ لا لَبْسَ فيه، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ.

دَلالةُ اسْتِعمالِ أداةِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

لا يمنعُ كَونُ (حَتَّى) ابتدائيّةً أن تكون غايةً لِمَا قَبْلَها

أداةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ حَرفُ ابتداءٍ، وهي غايَةُ نَيلِهِم؛ أي: استيفاءُ المذكورين نصيبَهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2831.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/171.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/412.

ممَّا كُتِبَ لهم في اللَّوحِ المَحفوظِ، ولا يمنع كَونُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيّةً أن تكونَ غايةً لِما قَبلَها، فَلا بُدَّ أن يَنالَ المُفترون على الله تعالى، والمُكَذِّبون بآياتِهِ نَصيبَهم مِنَ الكِتاب كاملًا تامًّا إلى أن تتوفّاهم مَلائِكَةُ المَوتِ[1].

والكلامُ الواقعُ هنا بعدَ حتَّى فيه ترويعٌ لَهُم، وتهويلٌ لِما يُعاينوه عندَ قَبضِ أرواحِهم، وهو أدخلُ في تهديدِهم وتخويفِهم وموعظتِهم مِنَ الوعيدِ المُتعارَفِ[2].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ المجيءِ:

المقصودُ تصويرُ صُعوبةِ مجيءِ ملائكةِ الموتِ لا الإخبارُ عن مَجيئِهم

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمجيء على الإتيان في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾، حيث لم يقُل: (حتَّى إذا أتتهم رُسُلنا)، كما لم يقُل: (حتّى إذا تَوَفَّتْهم رُسُلنا)، وهو أوجزُ لفظًا؛ لأنَّ مجيءَ الملائكةِ صَعبٌ شديدٌ على مَن تحضرُه الوفاةُ، مجيءٌ خَطِرٌ، وذو شأنٍ؛ لذا كان المقامُ للمادَّة الّتي تدلُّ على الصّعوبة، وهي مادَّةُ (جاء)، بخلاف الإتيان الّذي يدلُّ على مجيءٍ فيه سهولةٌ ولِينٌ، كَما سَبَق بيانُه مرارًا.

ولتصويرِ مجيءِ ملائكةِ الموت، فهو مجيءٌ حتميٌّ له بدايةٌ ونهايةٌ وحدثٌ، ومضمونُه فظيعٌ، ولاسيَّما إذا ارتبطَ بالمُكذِّبينَ، فكان المقصودُ تصويرَ مشهدِ المجيءِ لغايةِ التَّوفِّي، لا الإخبارَ عنِ التَّوفِّي فحسب.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بأداة (إذا) دونَ (إن):

مجيءُ ملائكةِ الموتِ حتميٌّ لا شكَّ فيه ولا جدالَ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ عُبِّرَ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ)؛ لأنَّ أداةَ الشّرطِ (إنْ) تفيدُ التَّشكيكَ في حصولِ الفعلِ، إذ قد يحصلُ أو لا يحصلُ، بخلاف (إذا) الّتي تفيدُ القَطْعَ بحصولِه، وللدّلالة على حَتميَّةِ هذا المجيء، وتَحَقُّقِه، وعَدَمِ تَخَلُّفِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/226، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/116.

عن أَحَدٍ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: 185].

نُكتة التَّعبيرِ بالرُّسُلِ دونَ الملائكةِ:

التَّنبيهُ على الفَرْقِ بين الرُّسُلِ المُبلِّغين والرُّسلِ المُوكَّلين بقبْضِ الأرواحِ

المقصودُ منَ الرُّسُلِ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ مَلَكُ الموتِ وأعوانُه[1]، بدليلِ قولِه تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالرُّسل دون الملائكةِ أو ملكِ الموتِ، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السّجدة: 11]؛ للإشارةِ إلى أنَّ الرُّسُلَ المذكورين في قولِه تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ - فيما سبق - هم أداةُ النَّجاةِ منَ الرُّسُلِ المذكورين في هذه الآية، فهو بمنزلةِ التَّنبيهِ على الفَرقِ بين الرُّسُلِ في التَّبليغِ والتَّوفِّي، فمَنِ استجابَ للرُّسلِ المبلِّغينَ عنِ اللهِ في دعوتِهم نجا مِن عذابِ الرُّسلِ المُوكَّلين بقبضِ الأرواحِ عند توفِّيهم.

غَرَضُ الإضافةِ:

التّشريفُ والتّكريمُ للملائكةِ، وبيانُ أنّهم رُسلٌ أمناءُ مُطيعونَ

غرضُ الإضافةِ في قوله: ﴿رُسُلُنَا﴾ تعظيمُ مكانةِ تلك الرُّسُل عندَ اللهِ تعالى، والتّشريفُ والتّكريمُ للملائكة، وبيانُ أنّهم مبعثون منَ اللهِ تعالى، وأنّهم لا يخطِئون في قبضِ الأرواحِ، ولا يزيدونَ أو يَنقُصونَ من أجلِ الميِّت، ولا يخالفونَ أمرَ اللهِ في شيءٍ، فهم مُطيعونَ ولا يستقلُّونَ عن أمرِ اللهِ في ذلك، بل يقبضونَ بإذنِه ومشيئتِه، كما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 61].

بَلاغةُ إسنادِ التَّوفيةِ إلى الرُّسُلِ:

إسنادُ التَّوفيةِ (الموت) إلى الرُّسُل (الملائكة) في قولِه تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/76.

لـكـلِّ وظـيـفـةٍ كـونـيَّـةٍ ملائكةٌ يتوَلَّونها

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقته السّببيَّة؛ لأنَّ المُتوفِّيَ الحقَّ هو اللّهُ تعالى، كما قال سبحانَه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزّمر: 42]، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ اللّه تعالى وكَّلَ ملائكةً مَخصوصين لهذا الأمر، كما أنَّه وكَّل آخرينَ منهم لوظائفَ أخرى، وأنَّ تنظيمَ شؤونِ الكونِ كلِّه قائمٌ بأمره.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصِيغة المضارِعِ:

الـوفـاةُ حـقٌّ واصلٌ لكلِّ حيٍّ ما دامَت أنفاسُ الحياةِ فيه

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾؛ للدِّلالة على تَجدُّدِ التّوفيةِ، وتكرارِها مع كلِّ حيٍّ نَفْسًا نَفْسًا[1]، وأنَّ هذه التَّوفيةَ ستصلُ لكلِّ حيٍّ ما دامَت أنفاسُ العبادِ قائمةً في الحياةِ، كما حكى ﷻ عن وظيفةِ ملكِ الموتِ وأعوانِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61]، وجملة ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال.

غَرَضُ الاسْتِفهامِ التَّهكُّمي:

توبيخُ المُكذِّبين وتقريرُهم عند قَبضِ أرواحِهم تحذيرٌ لغيرِهم في حياتِهم

تسألُ ملائكةُ الموتِ هؤلاء الموصوفين بما ذُكِر عند قَبضِ أرواحِهم مُوَبِّخين لَهُم، ومُبَكِّتين ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: أين الشّركاءُ الّذين كنتُم تَعبدُونَهُم من دون اللّهِ؟! تهكُّمًا بهم، فلا يوجدُ مَن يدفعُ عنهم ما هُم مُقبلون عليه من عذابٍ شديدٍ، والتَّحسيرِ لفواتِ الفرصةِ لرجوعِهم إلى الحَقِّ بالإيمانِ باللّهِ ورسلِه، وبما جاؤوا به من عندِ اللّهِ، والتّيئيسِ الحاصلِ من فَقْدِهم شُركاءَهم، أو يُحمَلُ الاستفهامُ على التَّوبيخِ والتّقريرِ[2]، أو يُحمَلُ على الإنكارِ بطريقِ الكنايةِ؛ حيث تُوصِّلَ إلى إنكارِ الحالِّ في المكان بإنكارِ المكانِ

(1) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/48.

المَحلولِ فيه، وهو إنكارُ الآلهةِ المُدَّعاةِ على أبلغ وجهٍ؛ أي: إنكارُ وقوعِ أن تكونَ لهم آلهةٌ أخرى شركاء للّه ينفعونَهم أو يضرّونَهم[1].

فللاستفهام غرضان:

الأوَّل: تَوبيخُ وتقريعُ وتَبْكِيتُ المُكذِّبين ليَزيدهم غَمًّا إلى غَمٍّ.

الآخر: لُطفٌ بالمُكَلَّف؛ لأنَّه إذا تَصَوَّرَ ذَلِك صَرَفَه عَنِ التَّكذيبِ[2].

بَلاغةُ اسْتِعمالِ ﴿مَا﴾ بعدَ أداةِ الاسْتِفهامِ ﴿أَيْنَ﴾:

توريثُ المُخاطَبين النَّدمَ والحسرةَ في وقتِ الانْقطاعِ الكلّيِّ عنِ الأملِ

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ جاءَ بعدَ أداةِ الاستفهام عنِ المكان في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فالسُّؤالُ عنِ الآلهةِ الّتي كان يعبدُها أولئك في حياتِهم، فهو سؤالٌ يقتضي استحضارَ مكانِ العبادةِ الّتي كانوا يرجون فيه النَّجاةَ، ويفيدُ الاسمُ الموصولُ استحضارَ عمومِ الآلهةِ الّتي كانوا يعرفونها حقَّ المعرفةِ، وينتظرون إعانتَها؛ فقد جمعَ الاستفهامُ بـ﴿أَيْنَ﴾ واستعمالُ ﴿مَا﴾ بعدَه استحضارَ العبادةِ والمعبودين ومكانَها، وما يقتضيه ذلك من عمومِ الأوقاتِ، وهذا التّركيبُ اللّغويُّ يُورِثُ المُخاطَبين شديدَ النَّدمِ في تلك اللّحظةِ الحَرِجةِ، فكأنَّ المعنى: "أين الآلِهَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا لِيَكُونُوا لَكم شُفَعاءَ؟ فَلا نَراهم يُخَلِّصُونَكم مِمّا تَحَقَّقَ عَلَيكم مِن هَذِهِ الشَّدائِدِ"[3].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالدّعاءِ دونَ العِبادةِ:

التَّعْبيرُ بالدُّعاءِ لِمُناسبتِه لِمقامِ الاسْتِغاثةِ والنَّجاةِ

عُبِّرَ بالدّعاءِ دونَ العبادةِ في قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الموطنَ موطنُ طلبِ نجاةٍ واستغاثةٍ والتجاءٍ، فيحسنُ فيه الدّعاءُ، وهذا في غاية التّيئيسِ لَهُم والتَّبكيتِ؛ لانصرافِ شركائِهم عنهم، ومَن كانوا يظنّون نُصرَتهم، وهم في أحوجِ ساعاتِ الإجابةِ لمطالبِهم.

(1) اللّطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/2679.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/440، والطّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/379.

أمَّا دلالةُ استعمالِ ﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، حيث لم يقُل: تشركونَ باللّه؛ فلأنّ المرادَ بالدُّعاءِ دُعاءُ العِبادَة[1]، وهذا هو المناسبُ للمقام كما تَمَّ بيانه.

دَلالةُ اسْتِعمالِ لفْظِ ﴿دُونِ﴾:

زيـادةُ تبكيتٍ للعابدِين من دونِ اللهِ تعالى

في التَّعبيرِ بِلَفظِ ﴿دُونِ﴾ وإضافتِه إلى لفظ الجلالة الاسم الأعظم في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ زيادةُ تبكيتٍ لهم، وتعنيفٍ، وتقريعٍ؛ حيث انصرفوا عن عبادة خالقِهم ورازقِهم والمُنعِمِ عليهم، ومالكِ أمورِهم إلى عبادة المخلوقِ الأدنى خِسَّةً ورُتبةً سواء أكان بَشَرًا، أو جِنًّا، أو ملائكةً، أو حجارةً، أو أوثانًا.

سِرُّ اسْتِعمالِ لفْظِ الضَّلالِ:

الاعترافُ بضَلالِ المعبودِ دليلٌ على ضلالِ العابدِ

في استعمال ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ هنا إشارةٌ إلى الاعتراف بضلالِهم بالتّصريحِ بضلالِ معبوداتِهم، حيث قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: غابوا غيبةَ مَن لَا يستطيعُ أن يعود منها، وبذلك ثبَتَ عجزُهم، وثَبَتَ لهم بهذا الإقرارِ أنّهم لا يستطيعونَ أن ينفعوهم أو يضرُّوهم في هذا اليومِ العصيبِ الّذي يستقبلُهم.

وفي قوله: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ كنايةٌ عنِ العدم، فالآلهةُ المزعومةُ لم يكن لها وجودٌ بهذا المعنى حتَّى تَضِلَّ طريقَها إلى عابديها، فقد أَقَرُّوا أنَّهم كانوا يدعون العَدمَ والوهمَ؛ لعجزِهم عن فعلِهم وقتَ الحاجةِ إليهم[2].

والمُتأمِّلُ في جوابهم ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ يَجِدُ أنَّه جوابٌ من حيث المعنى لا من حيث اللَّفظ؛ وذلك لأنَّ السُّؤالَ إنَّما وقعَ عن مكانِ الّذين كانوا يدعونهم من دونِ اللّهِ، فلو جاءَ الجوابُ على نَسَقِ السُّؤالِ لقيل:

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 7/396.
(2) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.

هم في المكانِ الفلانيِّ، وإنَّما المعنى: ما فعلَ معبودكم ومن كنتُم تدعونهم، فأجابُوا بأنَّهُم ذهبوا عنهم، وغابُوا فلم يرَوْهم[1].

فائِدةُ العطْفِ ودلالتُه:

عَـطـفُ الـدَّلـيـلِ عـلـى الـدَّعـوَى يَـسـتـوجـبُ اسْتِحْقاقَهم كُلَّ عِقابٍ إلهِيٍّ

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بالواو على ما قَبلها: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ للتَّوَسُّطِ بين الكمالين، وهذا التّذييلُ مُؤكِّدٌ لمضمونِ ما قَبلَه، ودَلَّ عَطفُ قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ على أنَّ الشّهادةَ هنا إقرارٌ وحُكمٌ على أنفسِهم أنَّهم كانوا في حياتهم الدّنيا كافرين بالحقِّ، جاحدين به، وباللّه تعالى، وحسبُ ذلك دليلًا دامغًا عليهم، وعلى استحقاقِهم كُلَّ عقابٍ إلهِيٍّ ينتظرُهم[2]، ففيه عَطفُ الدَّليلِ على الدَّعوى، فَهُم قالوا، ثُمَّ شهدوا على أنفسِهم.

غَرَضُ ذِكْرِ القيْدِ:

الـشَّـهـادةُ على الـنَّـفْـسِ أقـوَى أدلَّةِ الإثباتِ

لم يقُل: (وشهدوا أنّهم كانوا كافرين) مع وجازته، بل أتى بقيدٍ: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ وذلك لتكونَ نَصًّا على أنَّ الشّهادةَ صَدَرَت عنِ المُكَذِّبين، ولتكونَ حسرةً عليهم أن يشهدوا على أنفسِهم لا لَها.

سِرُّ العُدولِ عنِ الكذبِ إلى الكُفرِ:

إظهارُ عَراقَتِهم في الـكُـفـرِ، واسْتِحقاقِهم العذابَ

في صدرِ الآيةِ جاء الحديثُ عنِ المُكَذِّبين، وفي آخرها جاءَ قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ فوصفهم بأنَّهم كانوا كافرين، فلم يقُل: (أنَّهم كانوا مُكذِّبين)، وضَمَّ الكَذِب إلى الكُفر؛ ليجمعَ لهم بين وصفين شنيعين يستحقّون بالاتّصافِ بهما أشدَّ العذابِ، وهُمَا: الكُفر والكَذِب.

فائدةُ التّوكيدِ:

أُكِّدَ الخبرُ ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بأنَّ واسميّة الجملةِ وبالكون

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/105.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2832.

الماضي؛ للدِّلالة على اعترافِهم بعراقتِهم في الكُفر، ولبيانِ مدى تناقضِ المشركين وجهلِهم وضلالِهم في حالتي عبادتِهم الآلهةَ المزعومةَ وإقرارِهم بكفرِهم، ولإظهارِ حُجّةِ اللّهِ عليهم، وتقريرِ عَدْلِه في عقوبتِهم، وللتّنبيهِ على أنّهم لم يكونوا جاهلينَ بحالِهم، بل كانوا يعلمونَ أنَّهم كافرونَ، ولكنّهم أصرُّوا على الكفرِ والشِّركِ، ففي هذا التّأكيدِ تحذيرٌ شديدٌ لمَنِ اتّخذَ من دون اللّهِ أولياءَ وأندادًا.

بيانُ تناقُضِ المُشركين، وإظهارُ حُجَّةِ اللهِ عليهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصيبُ والحَظُّ:

النَّصيب: الحَظُّ المُعَيَّن[1]. ويدُلُّ الأصلُ على إقامَةِ شَيءٍ وإهدَافٍ في استِواءٍ. والنَّصيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: هذا نَصيبِي؛ أي: حَظِّي، وهو مِن هَذا، كأَنَّهُ الشَّيءُ الَّذي رُفِعَ لَكَ وأُهْدِفَ[2]. والنَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، يُقال: أَخَذَ نصيبَه منَ الدُّنيا؛ أي: المقسومَ لَه، خيرًا كان أو شَرًّا، سعادةً أو شَقاءً. والنَّصيبُ ما يُصيبُ الإنسانَ من قِسمَةٍ سواء ارتفع بها شأنُه أم لا[3].

النَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، والحَظُّ النَّصيبُ المُقَدَّرُ منَ الخيرِ والفضْلِ

أمَّا أصلُ الحظِّ فهو النَّصيبُ والجَدُّ[4]. والحَظُّ: النَّصيبُ المُقَدَّرُ منَ الخير، وهو ما يَحَظُّه اللّهُ تعالى للعبد منَ الخيرِ والفضلِ، وهو يرتفعُ به المحظوظُ؛ ولهذا يُذكَرُ على جهةِ المدحِ؛ فيُقال: لفلان حَظٌّ، وهو محظوظٌ[5]، ولذا عبَّر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصّلت: 35]؛ أي: منَ الخيرِ والفضلِ والكرامةِ عندَ اللّهِ، وكلُّ (حظٍّ) في القرآن فهو بهذا المعنى.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 135.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حظَّ).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغَويَّة، ص: 135، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حظَّ).

الكِتابُ والقرآنُ:

لُـوحِـظَ في الاستِـعـمـالِ الـقـرآنيِّ الـطَّـردُ والـعَـكـسُ بين الكِتابِ والقرآنِ

المعنى المحوريّ لأصلِ مادّة (كَتَبَ) إلصاقٌ بدقّةٍ وقُوّةٍ، ومن ذلك الكتابةُ المعروفةُ فهي إلصاقُ الكلام بتثبيت رموزه[1]. وقد يُقال ذلك للمضموم بعضه إلى بعض؛ لذا سُمّي كلامُ اللّه - وإن لم يُكتَبْ - كِتَابًا وإن أُنزل مقروءًا، ولكنّه كان مكتوبًا في اللّوحِ المحفوظِ قبلَ أن ينزّلَ على رسولِ اللّهِ[2] ﷺ.

ومعنى القُرآن الجَمعُ، وَسُمِّيَ قُرآنًا؛ لأَنَّه يَجمَعُ السُّوَر، فيَضُمُّها[3].

أَمَّا من ناحية الاستعمالِ القرآنيِّ فَيُلحظُ أنَّه إذا كَثُر ورودُ (الكِتاب) في السّورة أكثرَ منَ القرآن أو لم يُذكرْ فيها، فإنّه يُعَبَّرُ عنِ القرآن بالكتاب، والعكس أيضًا إذا كان ذِكرُ كلمةِ القرآنِ في السّورة أكثرَ ورودًا من كلمة الكتابِ، فإنَّه يُعَبَّرُ عنِ الكِتاب بالقرآن، وإذا اجتمعَ القرآنُ والكتابُ فيتردّدان في السّورة بشكلٍ متساوٍ تقريبًا، ومن شواهد ذلك، أنَّه في سورة البقرةِ بدأَ بالكتاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وذكرَ (الكتاب) في السّورة 47 مرّةً، و(القرآن) مرّةً واحدةً في آية الصّيام: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قرأ).
(4) السّامرائّي، لمَسات بيانيّة، ص: 254.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»